الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

تبسيط فهم معاني سورة الملك

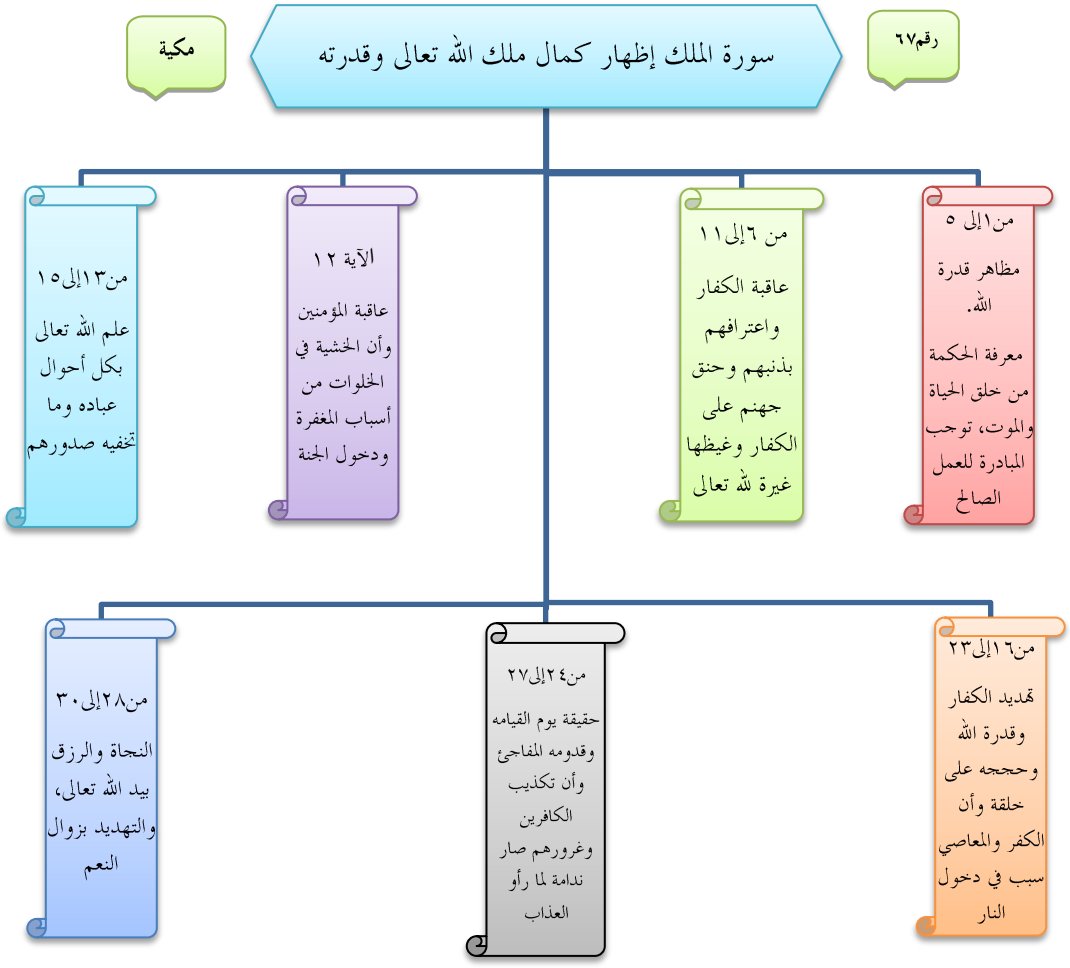

من سور القرآن العظيمة التي صح الحض على تلاوتها، وتسمى تبارك، والمانعة، والواقية، والمنجية، وورد الأثر بأنه تقي صاحبها من عذاب القبر ففي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: (سورة تبارك هي المنجية من عذاب القبر)، صحيح الجامع رقم (٣٦٤٣).

مقاصد السورة

١. بيان دلائل الربوبية المستلزمة لتوحيد الألوهية.

٢. إثبات المعاد، والحساب والجزاء، ومآلات العباد.

٣. إبطال الشرك وتزييفه.

هذه السورة تسمى سورة الملك، وتسمى أيضًا سورة تبارك. وتلقب بـــ (المانعة) و (المنجية) و(الواقية)، لآثارٍ وردت بهذا المعنى.

فضائلها:

ورد في فضائلها أحاديث كثيرة منها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: { إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ، ثَلَاثُونَ آيَةً، شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: ١]،[1] فهذا الحديث من أمثل ما روي ففي فضائلها، وليس هذا لمن حفظ حروفها فقط وإنما لمن وعاها وفَقُه ما تضمنته من عقائد وعلم نافع، وهذا الذي شفع له عند ربه؛ فإن فيها من العلم بالله تعالى، وإثبات المعاد، وإثبات الرسل، والملائكة، وبقية أصول الإيمان ما هو أعظم سبب ووسيلة، لأن تكون سبب نجاة لصاحبها من النار، لأن القرآن ينفع الإنسان إذا تدبره وتذكره وفقُه معانيه قال الله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]، وورد في فضلها أحاديث أخرى فيها كلام، كحديث ابن عباس قال: { ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرٍ وَهُوَ لَا يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرٍ

[1] أخرجه أحمد- (٧٩٧٥)، وأبو داود- (١٤٠٠)، وحسنه الألباني، وأخرجه النسائي في الكبرى- (١١٥٤٨)، وأخرجه الترمذي- (٢٨٩١)، وقال: هذا حديث حسن.

وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ تَبَارَكَ الْمُلْكِ حَتَّى خَتَمَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «هِيَ الْمَانِعَةُ، هِيَ الْمُنْجِيَةُ، تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ }[٢].

(تبارك)، مأخوذ من مادة بركَ.

والبركة لها معنيان.

المعنى الأول: اللزوم والثبوت.

ولهذا نقول: (بركة)، للماء المستقر في موضع واحد.

المعنى الثاني: النماء والزيادة.

ولفظ تبارك لا يجوز استعماله في غير حق الله تعالى؛ لأنه يختص به تعالى، فقد ورد في القرآن العظيم لفظ تبارك في حق الله تعالى في تسع آيات، أولها في الأعراف وأخرها في سورة الملك. فهو مما اختص الله تعالى به، وهو يدل على التمجيد والتعظيم والتطهير والتقديس، وهو وصفٌ ذاتي لله تعالى؛ فالله وحده هو الذي يتعالى ويعظم ويكثر خيره وفضله ومَنّه؛ فلهذا لا يعبر به في حق غير الله، لكن يقال في حق غير الله مبارك فالحاصل أن البركة تضاف لغير الله تعالى، لكن لا يقال تبارك إلا في حق الله تعالى، كما قال الله تعالى:{وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ } [مريم: ٣١]، وقد أطال ابن القيم –رحمه الله– الكلام على هذا اللفظ في (كتابه الفوائد– وكتابه جلاء الأفهام)، بما لا مزيد عليه مما يدل على أن هذا اللفظ يختص بالباري سبحانه وتعالى.

والبركة تدل على كثرة الخير، وتضاف إلى مخلوقات الله مثال ذلك: وقد توصف بعض الأماكن بالبركة كمال قال الله تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا

[٢] أخرجه الترمذي- (٢٨٩٠)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه.

وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} [آل عمران: ٩٦]، فهو مبارك لما يقع فيه من العبادات وذكر الله تعالى، فشهر رمضان شهر مبارك بما جعل الله فيه من الخير، العسل فإن فيه بركة، والزيتون فيه بركة، وماء زمزم يقال عنه ماءٌ مبارك. أي أن الله تعالى أودع فيه البركة، بما يحصل منه من الخير والشفاء كما جاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم:{ مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ}[٣]، ولا يجوز إثبات بركة في شيءٍ من الأشياء إلا ما أثبت الله فيه البركة، فكل ما أثبت الله تعالى فيه بركة ومنفعة فإنَّ نثبته سواءٌ كان في الأشخاص، والأمكنة، والأزمنة، الأطعمة والأشربة ، فهذا مما يتعلق بهذه اللفظة.

قال ابن القيم –رحمه الله– والبركة نوعان:

النوع الأول: بركة هي فعل تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسة تارة، وبأداة على تارة، وبأداة في تارة، والمفعول منها مبارك. وهو ما جعل كذلك، فكان مبارك بجعله تعالى.

النوع الثاني: بركة تضاف إليه، إضافة الرحمة والعزة؛ والفعل منها تبارك. ولهذا يقال لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عز وجل. فهو سبحانه المبارك، وعبده ورسوله المبارك، كما قال الله تعالى على لسان المسيح عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: {وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ } [مريم: ٣١]، فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى، كما أطلقها على نفسه بقوله تعالى: {تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} [الأعراف: ٥٤]، وقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: ١]، وقوله: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} [المؤمنون: ١٤]، وقوله: {وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [الزخرف: ٨٥]،

[٣] أخرجه أحمد- (١٤٨٤٩)، وحسنه ابن القيم في زاد المعاد- (٣٩٣/٤)،والحديث مختلف فيه بين الرفع والوقف، و لمزيد إطلاع ينظر تلخيص الحبير للحافظ ابن حجر(٢٦٨/٢).

وقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [الفرقان: ١]، وقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ} [الفرقان: ١٠]، وقوله: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا} [الفرقان: ٦١]، أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كتعالى وتعاظم ونحوهما.

فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها.

قوله: {الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}، هو الله سبحانه وتعالى فملك السموات والأرض بيده تعالى لا يخرج عن ملكه شيء ولهذا قال الله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ} [سبأ: ٢٢]، فلا أحد سوى الله يملك مثقال ذرة في السموات والأرض لا استقلالاً ولا مشاركةً ولا معاونةً.

قوله: {لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ}، أي: استقلالًا

قوله: {وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ}، أي: مشاركة.

قوله: {وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ}،أي: معاونة.

فالملك كله لله كما في الذكر: (لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ)[٥]، وفي التلبية: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ)[٦]، فجميع ما في السموات والأرض ملك لله تعالى لا ينازعه فيه أحد، وإذا أضيف الملك لغير الله تعالى فهو ملك نسبي مؤقت محدود، كأن يقول الإنسان: هذا بيتي،

[٥] أخرجه البخاري- (٦٣٨٥)، ومسلم- (٥٩٣)،متفق عليه.
[٦] أخرجه البخاري- (١٥٤٩)، ومسلم- (١١٨٤)، متفق عليه.

وهذه سيارتي، وهذا كتابي، فهذا صحيح لا بأس به؛ لكنَّ هذا الملك ملك محدود مؤقت غير شامل ولا مستمر، كما أنه إذا مات انتقلت عنه إلى من بعده قال الله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} [مريم: ٤٠]، فكل ملك يضاف إلى غير الله تعالى فهو ملك مؤقت محدود وقاصر، ولو أنَّ إنسانًا أراد أن يتلف ماله لضرب على يده وحجر عليه لأن هذا التصرف تصرف غير راشد فاحتاج إلى أن يحجر عليه، وإذا علم المؤمن بأن الملك كله لله؛ فإنه يطلبه منه، لا يطلبه من المخلوقين، ويعلم أن خزائن السموات والأرض بيد الله تعالى وأنه إذا أراد الرزق فليسأله من معطيه قال الله تعالى: {فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [العنكبوت: ١٧]، فيخطأ بعض الناس حين يقول: فلان قطع رزقي! فليس هو الذي يهبك ولا هو الذي يمنعك؛ لأن الله تعالى هو الرزاق وهو الذي بيده الملك.

ودلت هذه الآية على إثبات صفة من صفات الله الذاتية الخبرية، وهي صفة اليد فالله تعالى كما أخبر عن نفسه له يدان كريمتان مبسوطتان بالعطاء والنعم لا تشبهان أيدي المخلوقين، بل هما يدان تليقانِ بجلاله وعظمته كما قال الله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]، وكما قال الله تعالى لإبليس: { مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]، فما دام أن الله تعالى أثبت لنفسه هذا الوصف فالواجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يثبت ما أثبت الرب لنفسه مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن مماثلة المخلوقين فالله تعالى يقول: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: ١١]، ولا يجوز لأحد أن يرد أو ينكر ما أثبت الله لنفسه، فالله تعالى أعلم بنفسه وبغيره وأصدق قيلًا وأحسنُ حديثًا من خلقه، فيجب أن نعتقد ذلك دون تحريف أو تعطيل أو تكييف أتمثيل.

ولا يجوز تحريف صفة اليدين إلى النعمة أو القدرة؛ فإن السلف الصالح قاطبة أثبتوا هاتين اليدين على وجه لائق بالله تعالى و لم يقل: أحدٌ من السلف من الصحابة والتابعين وأتباع

التابعين بأن اليد بمعنى النعمة أو القدرة. وإنما وقع هذا من بعض المتأخرين الذين توهموا أنّ إثبات اليد يلزم منه تمثيلًا ففروا من التمثيل ليقعوا في التعطيل، والواجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يثبت إثباتًا بلا تمثيل وأن يتره الله تعالى تتريهًا بلا تعطيل، وهذه القاعد من التزم بها سَلِمَ وعوفي من أن تزل قدمه في هذه المزالق الخطيرة، ولا يلزم من كونها أتت بصيغة المفرد في هذه الآية منافاة مجيئها في مواضع أخر بصيغة التثنية والجمع؛ لأن المفرد المضاف يعم، فلا ينافي التثنية ولا الجمع فلو قال قائل: أخذت هذا القلم بيدي. لا يعني هذا أنه مقطوع اليد الأخرى ولو قال قائل: نظرت إلى الحادث بعيني. لا يلزم من ذلك أن يكون أعور، ولو قال قائل: مشيت إلى فلان برجلي، لا يلزم من ذلك أن لا يكون له إلا رجلٌ واحدة، فالمفرد إذا أضيف فإنه يعم قال السيوطي[٧]:

ومثله المفرد إن تعارف وإن يضف والفخر مطلقًا نفى

ونمثل لذلك بمثال من كلام الله قال الله تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ} [النور: ٦٣]، فلفظ {أمر} مفرد مضاف، و{الهاء} مضاف إليها فيعم كل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم.

فلا تعارض بين لفظ الإفراد و لفظ التثنية الوارد في قول الله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]، وقوله: { مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥].

وهؤلاء الذين حرفوا معنى اليد إلى النعمة أو القدرة، كيف يصنعون بقول الله تعالى: {بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ} [المائدة: ٦٤]؟، فإن قالوا: يداه بمعنى نعمتاه، لقلنا: نعم الله كثيرة وليست نعمتين فقط، فالله تعالى يقول: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [إبراهيم: ٣٤]، وقال الله تعالى: {وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} [لقمان: ٢٠].

[٧] الكوكب الساطع، صيغ العموم.

وإن قالوا: اليد بمعنى القدرة قلنا لله قدرة واحدة، ولا يصح أن يقال: له قدرتان، ولكان إبليس يقول لربه لما قال له: {مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} [ص: ٧٥]، وأنا يا رب خلقتني بيديك! على اعتبار أن اليد هي القدرة؛ لأنه مخلوقٌ بقدرة الله تعالى؛ لكنه لم يقل ذلك؛ لأن إبليس يعلم أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام بيديه الكريمتين، فلهذا يجب أن نثبت لله تعالى هذا الوصف وما شابهه من مسائل الصفات، فنطيب نفسًا ونقرُ عينًا بما أخبر الله تعالى به عن نفسه ونعتقد كمال الله وتنزيهه عن مماثلة المخلوقين. قال النبي صلى الله عليه: {يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ}[٨]، وهذا لكمال غناه، وكثرة فضله وخيره، فهذه أدلة من الكتاب والسنة على إثبات اليد لله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: {وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [الملك: ١]، (كل) من ألفاظ العموم أي: أن الله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

ودلت هذه الآية على إثبات اسم الله القدير فهو من أسمائه الحسنى.

فالقدير: هو الذي يفعل الشيء من غير عجز.

والقوي: هو الذي يفعل الشيء من غير ضعف. فالفرق بينهما أن القدرة التمكن من الفعل بغير عجز، والقوة التمكن من الفعل بغير ضعف.

ومن آثار ذلك في نفس المؤمن أنه إذا علم أن ربه ومعبوده على كل شيء قدير كمل توكله عليه؛ لعلمه أنه لا يأتي بالحسنات إلا هُو ولا يدفع السيئات إلا هُو، ويبقى قلبه معلقًا بربه القدير قال الله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ

[٨] أخرجه البخاري- (٤٦٨٤).

يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنعام: ١٧]، فلا تستصعب شيئًا على ربك فالله تعالى لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ}، من صفات الله تعالى أنه خلق الموت والحياة فكلاهما مخلوق لله وهذا يدل على أن الموت مخلوق، فبعض يقول: إن الموت شيء عدمي غير مخلوق. وهؤلاء يكذبهم القرآن؛ لأن الله تعالى قال: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ}، فالله تعالى يخلق الموت في نفس ابن آدم، كما أنه تعالى يخلق الحياة فينفخ الروح في الجنين فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: {إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ الْمَلَكَ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ فَيَقُولُ: اكْتُبْ أَجَلَهُ وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ}[٩]،قال الله تعالى: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الزمر: ٤٢]، والموت رغم أنه أمرٌ معنوي إلا أنه قد يصور بصورةٍ حسيه قال النبي صلى الله عليه وسلم: {يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلاَ مَوْتَ، ثُمَّ قَرَأَ: {وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} [مريم: ٣٩]، وَهَؤُلاَءِ فِي غَفْلَةٍ أَهْلُ الدُّنْيَا {وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} [مريم: ٣٩] }[١٠].

قال الله تعالى: {قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ} [غافر: ١١]، فهناك موتتان وحياتان.

الموتة الأولى: هي العدم، قال الله تعالى: {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا} [مريم: ٩]،

الموتة الثانية: بعد خروج الروح من البدن.

والحياة الأولى: هي التي تحصل بنفخ الروح في الجنين.

[٩] أخرجه البخاري- (٣٣٣٢). وأخرجه مسلم- (٢٦٤٣).
[١٠] أخرجه البخاري- (٤٧٣٠).

والحياة الثانية: هي التي تحصل بالبعث بعد الموت.

قوله: {لِيَبْلُوَكُمْ}،أي ليختبركم وهذا يدل على أن الله لا يفعل الشيء إلا لحكمة، وأن الله منزه عن العبث فلم يخلق الله تعالى الموت والحياة لا لشيء، ولا لحكمة، بل: {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، وكأن تقدير الآية الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم فيعلم أيكم أحسن عملا، والله تعالى لا ريب أنه قد علم بالأشياء قبل حصولها، لكن متعلق العلم أمران:

الأمر الأول: علم الله بما يفعله ابن آدم بعلمه الأزلي، فالله تعالى علم ما كان وما يكون وما سوف يكون وما لم يكن كيف لو كان يكون، فلا تخفى عليه خافية.

الأمر الثاني: علمه بمفعولات العبد إذا صدرت منه فيعلم وقوعها، وهذا لا ينافي العلم الأول.

قوله: {أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، ولم يقل: أكثر عملا؛ لأن العبرة بحسن العمل. قيل للفضيل بن عياض-رحمه الله-: ما أحسن عملا؟، قال: أخلصه وأصوبه.

فالعمل لا يكون حسنًا إلا إذا جمع بعض أوصافًا:

الوصف الأول: الإخلاص بأن يكون خالصًا لوجهه سبحانه وتعالى، لا شرك فيه لأحد قال الله تعالى: {قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر: ١١]، وقال الله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: ١١٠]، وقال الله تعالى في الحديث القدسي: {أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ}[١١]، فربنا سبحانه وتعالى غيور لا

[١١] أخرجه مسلم- (٢٩٨٥).

يرضي أن يشرك معه أحد؛ فلهذا لو أشرك العبد مع الله تعالى أحدًا في العمل أحبط الله عمله، ورده عليه، و لم يقبله منه، فيجب أن يحقق الإنسان كمال التوحيد لله رب العلمين.

الوصف الثاني: المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم، وهذا معنى قول الفضيل: (أصوبه)، وذلك بأن يتبع هدي النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يبتدع في دين الله ما ليس منه قال النبي صلى الله عليه وسلم: {مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا، فَأَمْرُهُ رَدٌّ}[١٢]، وقال من: {مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ}[١٣]، فلا يحل لأحد أن يحدث في دين الله، ويبتدع ويقترح فيه من عند نفسه ؛لأن ذلك افتياتٌ على مقام النبوة؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم هو المأمور بالتبليغ عن ربه ونحن مأمورون باتباعه لهذا يقول الله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٣١]، فإذا قال أهل الأهواء والبدع: يحسنُ كذا وكذا، وأحدثوا من الأوراد والأذكار والموالد والهيئات أمورًا من عند أنفسهم قلنا لهم: هذا طعن في الدين، وتنقيص للرسالة فقد قال الله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]، فكيف تأتون بشيءٍ لم يأت به الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فكأنما تقولون: أن الله لم يكمل الدين و لم يتم النعمة، وكأنما تقولون بلسان الحال لا بلسان المقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبلغ رسالة ربه؛ وهو الذي استشهد الناس يوم عرفة فقال: { وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟» قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ: بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ «اللهُمَّ، اشْهَدْ، اللهُمَّ، اشْهَدْ» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ }[١٤]، ونحن والله نشهد بما شهد به أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، بأنه قد بلغ الرسالة وأدى الذي عليه.

[١٢] أخرجه البخاري- (ص٦٩) تعليقًا، ومسلم- (١٧١٨).
[١٣] أخرجه البخاري- (٢٦٩٧)، ومسلم-(١٧١٨).
[١٤] أخرجه مسلم- (١٢١٨).

وهذان الشرطان: الإخلاص، والمتابعة. هما ركنا قبول العمل ووصفه بالحسن

الوصف الثالث: المداومة والثبات: فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: { وَاعْلَمُوا أَنَّ أَحَبَّ الْعَمَلِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلَّ}[١٥]، وقالت عائشة-رضي الله عنه- تصف عمل النبي صلى الله عليه وسلم:{كَانَ عَمَلُهُ دِيمَةً}[١٦]، فكان من هدى النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا عمل عملًا أثبته، وليس كحال كثيرٍ مِنّا يشتغل بالعبادة حينًا ثم يمل ويدعها، فهذا ليس من حسن العمل ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر بن الخطاب-رضي الله عنهما-: {يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ}[١٧]، وقال صلى الله عليه وسلم: {إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ}[١٨]، فينبغي للإنسان إذا عمل عملًا صالحًا أن يحافظ عليه؛ فيحافظ على السنن الرواتب، ويحافظ على أذكار ما بعد الصلاة، ويحافظ على الوتر، ويحافظ على ما كتب الله له من قيام الليل، ويحافظ على الصدقة، وكل عملٍ يعمله يثبته ولا يدعه بعد أن عمله.

الوصف الرابع: أن يكون مقرونًا بالخوف والرجاء: قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ} [المؤمنون: ٦٠]، (عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ} [المؤمنون: ٦٠] أَهُمُ الَّذِينَ يَزْنُونَ، وَيَسْرِقُونَ، وَيَشْرَبُونَ الْخَمْرَ؟ قَالَ: «لَا يَا ابْنَةَ الصِّدِّيقِ وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يُصَلُّونَ، وَيَصُومُونَ، وَيَتَصَدَّقُونَ)[١٩]، فمعنى (قلوبهم وجلة)، أي: أنهم بين الخوف والرجاء، فيعملون العمل ويخشون أن يرد عليهم، ويطمعون أن يقبل منهم، وهذا أمرٌ يغيب عنَ كثيرٍ منا! هل أحد منا رجا أن الله يقبل صلاته وخشي أن ترد

[١٥] أخرجه مسلم- (٢٨١٨).
[١٦] أخرجه البخاري- (١٩٨٧)، ومسلم- (٧٨٣)، متفق عليه.
[١٧] أخرجه البخاري- (١١٥٢)، ومسلم- (١١٥٩)، متفق عليه.
[١٨] أخرجه أحمد- (١٧١١٤)، والطبراني في الدعاء- (٦٣٠)، وأخرجه الحاكم في المستدرك- (١٨٧٢)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وقال الألباني في (السلسلة الصحيحة- ٣٢٢٨)، صحيح لغيره.
[١٩] أخرجه الترمذي- (٣١٧٥)، وابن ماجه- (٤١٩٨).

صلاته، قال أبو الدرداء: لو أعلم أنّ لي ركعتان متقبلتان لعلمت أني من أهل الجنة، ذلك أن الله تعالى يقول: {إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} [المائدة: ٢٧].

وأكثر الناس يفعل الصالحات، وكأنه جازم بأن الله قد تقبل منه! فعلى الإنسان أن يكون دائمًا بين الخوف والرجاء.